مولاي علي الشريف وجهوده التأسيسية
762-847هـ/1360-1443م
الجزء الثاني

أ.د مولاي هاشم بن المهدي العلوي القاسمي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله- فاس.
المملكة المغربية

في الجزء الأول من المقال، تناول الدكتور مولاي هاشم بن المهدي العلوي القاسمي، بالدراسة حياة مولاي على الشريف، المرتبطة أساسا بالأوضاع التي عرفها المغرب الأقصى، حيث شكّلت الحياة السياسية للمجتمع المغربي وتنظيماته المدنية والعسكرية قبليا وسلبيا وأسريا أهم صفات وخصال الرجل الذي ساهم بقسط وافر من تاريخ المغرب الأقصى، وهي الفترة التاريخية الممتدة من سنة 762هـ/1360م، إلى حوالي سنة847هـ/1443م. ففي خلال هذا الامتداد، عاصر الرجل أحداثا في تاريخ البلاد وارتبط بمتغيرات كبرى فعلت فعلها في تشكيل النظام السياسي وقيام مظاهر جديدة للحكم، فضلا عن تغيير وتبدل الأسر الكبرى، وهذه المظاهر هي نشأة الاستقلاليات المحلية بزعامات قبلية وأسرية على امتداد التراب المغربي شمالا وجنوبا- شرقا وغربا، وبرزت في ذلك ظاهرة تفسخ وضعف أوامر السلطان وسلطة الدولة، فتظهر الدولة بالاسم ولا تحكم بالفعل.

ومن أجل تتبع جهود "مولاي علي الشريف التأسيسية، قام المؤرخ في الجزء الأول من المقال بالتطرق إلى النقاط التالية:

أولا: اندراس ونهاية مدينة سجلماسة: وخلال هذه الفترة، تمّ تخريب مدينة سجلماسة في حياة مولاي علي الشريف.

-ثانيا: بداية تحول طرق التجارة من الصحراء الإفريقية الكبرى إلى الملاحة التجارية البحرية على المحيط الأطلسي.

ثالثا: أزمة الحكم والنظام السياسي المغربي من أواخر بني مرين إلى نهاية بني وطاس وقيام السعديين (763-916هـ)/ (1361-1510م).

-رابعا: بداية ميلاد جيوش المتطوعين للجهاد.

خامسا: جهود مولاي علي الشريف في الصحراء الإفريقية الكبرى وتأمين طريق الحجيج.

سادسا: جهود مولاي علي الشريف التأسيسية لنظام اجتماعي جديد يطمح إلى تحقيق وحدة تافيلالت وإعادة تنظيمها بعد اندراس مدينة سجلماسة.

1- الإشراف على تنظيم الأحلاف القبلية وإعادة ترتيب الروابط بين إقليم تافيلالت والبلاد المغربية الأخرى.

بعد أن عاد مولاي علي الشريف من حركاته الكبرى التي تكررت مرارا طيلة خمسة عشر سنة بعد سقوط سبتة بيد البرتغاليين وكانت ضمن حركات الجهاد في الأندلس التي ذكرت النصوص أنها وصلت إلى ثمانية وعشرين حملة اختلفت في الزمان والمكان وكلها من أجل الدفاع عن الحضور الإسلامي بعد اشتداد خطر حروب الاسترداد بشرورها وويلاتها.

وأحداث الأندلس هذه لم تشغل مولاي علي الشريف عن تمهيد طرق القوافل والحجيج الفيلالي والصحراوي، ولذلك تصدى لتمهيد هذا الطريق وإعادة إحيائه بعدما أصابه من تدهور وانفلات أمن وفساد السابلة وفوضى هيمنة القبائل الرحل من معاقلة وطوارق وجموع أخرى. بعد كل هذه الأحداث استقر مولاي علي الشريف في تافيلالت وأخذ يعمل على تكوين نظام اجتماعي يعتمد على اقتصاد التجارة والزراعة في سجلماسة، فأخذ يستصلح الأراضي ويبني المنشآت العمرانية التي توافق النظام العمراني السجلماسي الفيلالي[39].

وقد استفاد مولاي علي الشريف من تحركاته سواء في الأندلس أو في طريق الحج بإفريقيا جنوب الصحراء وعمل على إحياء الطريق الوسطى الصحراوية العابرة "من سجلماسة إلى تنبكتو"، كما استفاد من كل ما جمعه من أموال وما تمكن من الوصول إليه من أراضي في تافيلالت، فأصبحت شهرته وسمعته تطبق الآفاق في النصف الأول من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فاشترى الأراضي والرباع وبنى الدور عبر الطريق التي تربط بين فاس وتافيلالت ولا أدل على ذلك مما بناه في مدينة صفرو وقرسلوين، حيث اتخذ منشآت لزاويته وارتبط بالقبائل المحيطة به، ثم أنشأ منشآت أخرى على الطريق نفسها في كل من حوض ملوية الأوسط والقصبات التي كانت قبائل الأحلاف تسيطر عليها. ويلاحظ أن حوض ملوية الأوسط كان تحت سيطرة القبائل المعقلية العربية الذين وصلوا بخيامهم وجموعهم من أنكاد وقبائل بني حسن وأولاد منصور الذين انتقلوا من توات وذوي منيع وأولاد جرار والحلاف وما شاكلهم من القائل الرحل العربية، فقد هيأ مولاي علي الشريف بمساعدة خبراء تجارة القوافل محطات للنزول والانتقال عبر طرق الاتصال بين فاي وتافيلالت وأقام في هذه المحطات و"النزالات"، وكان هناك طريق آخر متشعب من هذه الطريق المركزية من حوض ملوية الأوسط إلى ميناء عجرود "السعيدية حاليا"[40]، فهيأ فيها

الماء ومخازن الاستراحة للمتنقلين عبر الطرق، فكانت نزالة القصابي و"عين اشرب واهرب" المحاذية لفتح "تيزي ن تلغمت" ثم الطرق المؤدية لجبل العياشي وزاوية سيدي حمزة ثم فج تولّيجت الذي يعبره وادي زيز في بدايته المتجه نحو الجنوب الشرقي ليسقي مدغرة وتافيلالت، فكانت محطات أخرى في اتجاه تافيلالت سجلماسة وأهمها مركز تَدْرَاكْلُوت على نهر زيز قريبا من مركز الريش. ثم في الجهات الأخرى من ضفة وادي زيز حيث يقرب التقاؤه بنهر كَبر، وبهذه المنطقة القريبة من وادي كَبر وقرية تِيطْ نْ عَلِي حيث أقيم بجوارها مركز قرسلوين، فأقام بها مولاي علي الشريف محطة للعبور والتقاء القبائل والقوافل القادمة من سجلماسة أو من فاس.

وفي هذا الملتقى "فرسلوين" اتفق أن اجتمعت القبائل الجبلية من آيت حديدو وآيت عطّا وآيت حمزة وآيت عياش وآيت مرغاد ثم القبائل العربية، فاجتمعوا في هذا المركز واحتضنه مولاي علي الشريف وأقام به منشأة معمارية لأقاليم ومن انضم إليه، وأدى هذا الاجتماع إلى تقوية وتنظيم حلف قبلي عربي أمازيغي وهو إعادة إنشاء حلف آيتي فلمان. ويلاحظ في هذا التنظيم الجديد أن مولاي علي الشريف عمل على تقسيم الأسبوع والشهر والسنة لاستفادة القبائل الداخلة في حلف آيت يافلمان، فعين لكل منها وقتا مناسبا لمراقبة الطريق الواصلة ما بين سجلماسة وفاس، فكانت القبائل تفرض على القوافل أتاوات وحقوقا معينة مفروضة، وهي ما يعرف في نظام طرق العبور في التراب المغربي قديما من قبيلة إلى قبيلة ومن جهة إلى جهة بحق "الزطاطة" وهذا الحق يختلف حسب قوة القبيلة التي تعبرها أو تضمن تسيير القافلة من جهة إلى أخرى ويدخل في هذا النظام حق الماء الذي تتزود به القافلة وحق الظل وحق الاستراحة وحق تهييء الطعام وربما حتى تسيير المواد الغذائية كاللحم والخبز وما يتناسب وغذاء الناس المتنقلين مع القافلة وهو ما يسمى "العوين"، ثم يرتبط بهذا أيضا توفير العلف لحيوانات النقل وتعهدهم بالمناسب من علف بهائم القافلة.

وقد هيأ مولاي علي الشريف هذه الأشياء الضرورية للحياة في هذا الطريق التجاري وأشرف على تنظيمها وحراستها للدفاع عليها، فكان حقيقة مؤمنا للتواصل بين فاس وسجلماسة والمناطق الرابطة بينها، وقد استطاع أن يكتسب بهذا الجهد مكانة قوية جعلت من شخصية مولاي علي الشريف شخصية ضامنة "للوساطة" بين ملوك الدول المرينية الأواخر وبين القبائل الكبرى الواقعة في هذا المحور التجاري سجلماسة- فاس.

كون هذا الحلف قوة قبلية ساعدت على خلق تعايش حقيقي بين قبائل الجبال على الأطلس الكبير الشرقي وقبائل أزغار أي مناطق الرعي في السهوب الإستبسية ذات نباتات الحلفاء المناسبة لرعي الماشية من أغنام وماعز وإبل، وخلق بعض القرى

المهيأة في أحواض الشعاب والأنهار بالمناطق الشرقية وخاصة على كَبر وملوية ثم أيضا واد الشواطر على الساورة وما والاها.

مَكّن هذا الجهد أيضا القسم الشرقي من توحيد قوته وضبط استراتجيته بالفلاحين الرعاة وأيضا بالمستقرين في جبل العياشي وجبال غريس وأمْطْغاص ووادي دادس وأعالي المحاج والممرات الجبلية وواحة تينغير بشعابها ووديانها.

وهكذا يظهر أن مولاي علي الشريف كانت قوته ونفوذه الروحي والعملي والبشري ممتدا بالجهات الجنوبية الشرقية من المغرب الممتدة على قدم الأطلس الكبير والنجود العليا. ومن شأن هذا النفوذ أن يجعل من مولاي علي الشريف قوة ممتدة في الصحراء الإفريقية. وتمتد في شمالها إلى سفوح وقمم الجبال الكبرى بالإضافة إلى جبال الأطلس الصغير التي كان امتدادها في منطقة درعة وما جاورها حيث جبال آيت ساون والمرتفعات المجاورة لذلك، حيث التوجه إلى بلاد سوس ماسة. فكان مولاي علي الشريف يعمل على بسط نفوذه وشهرته الروحية باعتباره شريفا صريح النسب ذا نفوذ معترف به يحقق الوساطة في حال ما إذا حصل نفور أو اضطراب بين القبائل على اختلاف أسمائها، فكلها كانت تعترف بشخصيته.

وهكذا صار حلف آيت يافلمان رمزا معترفا "بقوة أهل تافيلالت ووحدتهم الاجتماعية والبشرية"، وكانت مهمته هي خلق التضامن الاجتماعي والتوازن القبلي والاحتفاظ عليهما في هذه المرحلة: النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد.

وحاولت هذه المجموعة البشرية أن تعيد التراتب الاجتماعي، وأشرف مولاي علي الشريف على ذلك، فكان للأمازيغ حضور قوي وصار للقبائل العربية حضور آخر، يتوازى الحضوران في قوة اجتماعية متقابلة. وفتحت بهذا التوازن قوة التواصل في اتجاه خلق مجموعات بشرية كثيرا ما يحاول بعض الكتاب أن يخلق من هاتين المجموعتين قوة متعارضة ومتضاربة معتمدا في كل ذلك الفرق ما بين سكان الجبال وسكان الوطا أي المناطق المنخفضة الرعوية[41]. ولكن حلف آيتي فلمان حاول أن يمسك بالخلاف الذي قد يحصل بين هذه المجموعات البشرية ويحل إشكالاتها.

هذه الوضعية التي حققها مولاي علي الشريف في هذه المناطق الجغرافية يسرت له نفوذا عمل على استخدامه في تشييد المنشآت بسجلماسة وواحاتها وفي بناء قصور السكن في الواحة الفيلالية، حيث ركز على إنشاء قصور حول مقره المحبب إليه "تغمرت"، وقد بنى بها مقر سكانه وزاويته التي يجتمع له فيها الأصحاب والأتباع والمريدون، وإن كان لم يتخذ طريقة صوفية خاصة به وإنما كان على السنة الصحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ابتغى من وراء هذه المنشآت تأسيس كيان

خاص به يجمع أحبابه وأقاربه وأصهاره من العمريين المترارريين والأنصاريين وذوي الاعتبار من خؤولة وعمومة.

وهكذا أصبحت للشريف مكانة كبرى واستقطب وجهاء تافيلالت إليه، فأحبوه والتفو حوله. وقد لخص ابن دفين طيبة هذا الواقع الاجتماعي لمولاي علي الشريف بما في ذلك صور الخلاف وأشكاله مع أخيه أبي البركات مولاي عبد الرحمن وأبنائه، وأفادنا في هذا الموضوع في كتابه الجوهر الشفاف ونعتمد عليه في هذا السياق لما له من قرب زمني وصلة بأسرة الأشراف بتافيلالت على الصورة الواردة الآتية:

2- صور من المعارضة والخلاف بين مولاي علي الشريف وبعض أهل تافيلالت

"فلما توفي مولانا الحسن (بن محمد بن الحسن الداخل)... خلف فرعين اثنين مولانا عبد الرحمن المكنى بأبي البركات والولد الأبر السميدع الأشهر مولانا علي المدعو بالشريف. فخرج من دورهم بالمدينة واشترى أصلا بالمصلح وبنى زاوية تسمى حارة الشريف وفيها تزايد له ولده الأكبر وهو مولانا الحسن بن علي ثم جعل زاوية قرب زاوية جنانه المعروف ببرج حمام، ثم اشترى أصولا من أولاد أبو (كذا) ربيعة بتانجويت، ثم اشترى أصولا أيضا ببني مداسن، واشترى أيضا أصل علي بن موسى المداسني. فلما اشترى جنان شملال بأرض مداسن تذاكرته أهل سجلماسة، واشترى أيضا من أولاد مولود التغمرتي أرضا وبنى فيها دارا ومسجدا وخلوة قرب فم القصر، واستسلف من أولاد مولود التمر والشعير، فاجتمع إلى أهل سجلماسة على أن يُقَومُوا له جميع أصوله ويعطوه ثمنا ويخرجوه عنهم، فشاوروا في ذلك سيدي محمد بن أبي إبراهيم وابن هلال نفعنا الله بهما، فقالا: أعطوه قيمة أصوله وأعطونا قيمة أصولنا معه لنخرج معه إلى حيث شاء، فإن رحمة الله لا تنزل من السماء على أهل بلد طردوا ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانقلب أهل سجلماسة كاظمين، وبقي مولانا علي الشريف في أصله، وزواياه مع من له آمنين مطمئنين، فَأَغْرَوا عليه أولاد مولود من تغمرت يقبضون منه تمرهم الذي استسلفه منهم قبل، وأشلوا (كذا في الأصل والمراد حرضوا) عليه المرأة طيطي المنداسية تقوم بالشفعة في جنان شملال ليظهر لها في بقية الأصول وجه استغلال، وترامى الأوباش أولاد البلدي[42] على مواليه بالمناقشة، كما أغروا عليه أولاد مولود التغمرتي يقبضون منه تمرهم الذي استسلفه منهم وذلك عقب السنة ولا توجد غالبا في ذلك الوقت، فتكلم أولاد مولود مع أولاد أبي البركات يقتلونه ويأخذون أصوله لأنفسهم[43]. فلما اشتغل رضي الله عنه بفم خلوته بتجويد القرآن للطلبة وتلقين الأسماء للفقراء، جعل أولاد أبي البركات يحفظون وأولاد مولود طالبين التمر بمناقشة ووجه غضب. فقال أحد الطلبة الحابط الحابط، فقال مولانا علي الشريف رضي الله عنه: اللهم إن أولاد أبي البركات وأولاد مولود كما علمت! اللهم قلل عهدهم. ثم قال: يا أولاد مولود اجمعوا الدواب واتوا تحملون

تمركم، فجاؤوا بكثرة الدواب ومد الكيل، فقال رضي الله عنه: سعوا وأرادوا فضيحتنا بين الناس، فأخرج قُفة من التمر، ثم قال له: اجعلها تحت السجادة، فمن أوفيته حقه، فمزق برنامجه، فما زال أولاد مولود يكتالون حتى استوفو من ذلك جميع حقوقهم، والتمر تحت السجادة لا تنقص شيئا، فتساقطوا عليه ذكرانا وإناثا يطلبون منه العفو والسماحة. وأما المرأة طيطي، فقد وكل وكيلا ينوب عنه في مخاصمته معها وتحاكموا عند القاضي السيد بلقاسم قاضي المدينة[44]. فلم يزل يؤجل لها حتى بلغ ثلاثة وعشرين أجلا في إرجاء حجتها، فلم تأت بشيء يسمع منها شرعا، وأعجزت بعجزها القاضي، فوقع الصلح بينها وبين وكيله على أن أبرت في شملال ولم يقبل لها فيه مقال. وأما الإسلاميون أصلا أولاد البلدي [45] فقد ابتليت بلوى كل من أضر منهم من الظالمين بمواليه رضي الله عنه فطلبوا عندئذ من مولانا العفو والتجاوز عنهم والمسامحة أن يجعل لهم علامة يتميزون بها. فأمرهم رضي الله عنه أن يحملوا جريدة النخل حيثما سلكوا، فإذا رآهم العامة أو لص أو غيره خافه على نفسه من عقوبة الله بسبب دعاء مولانا علي الشريف وغضبه عليهم وبعد منهم..."[46].

يتضح إذن أنه يفعل غزوات مولاي علي الشريف نحو الأندلس والسودان، أنه قد بعد صيته وكثر أتباعه، إلى درجة جعلت أمير وقته السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني (حكم بين823 و869هـ) يتخوف منه بعدما كان يحبه ويوقره، قبل دخول الوشاة من أهل فاس بينهما. فأمره السلطان بسكنى فاس لمراقبته ومراقبة تحركاته وأنشطته، فامتثل مولاي علي الشريف الأمر، وسكن بحومة راس الجنان وبجزاء ابن عامر[47]، فطاب له القرار بالمدينة، وازدحم الناس على بابه كازدحامهم على باب الملك، وتواردت عليه الوفود من سائر الجهات، فازداد خوف المريني منه، مما دعاه إلى أن يأذن له مرة أخرى بالعودة إلى سجلماسة- تافيلالت في محاولة منه لإبعاده عن العاصمة المرينية[48]. وتحول استقرار مولاي علي الشريف بتافيلالت إلى خلافات نشأت بينه وبين معارضيه ومنافسيه الذين أحلوا عليه في الخروج من بلدهم كما تبين في الفقرات السابقة.

3- بداية بروز وظهور أسرة العلويين السجلماسيين

إن التحول المادي لأسرة الأشراف نتيجة جهود مولاي علي الشريف واكتسابه قوة مالية بتافيلالت بشرائه للأصول والدور والعقارات والأراضي وبناؤه للقصور وخاصة بمنطقة وادي إيفلي وما جاوره، كل ذلك أثار الخلاف بينه وبين بعض ساكنة الإقليم وتطلب الموقف ذات البين مع الأهالي.

هذا الانتقال السريع لأسرة الشرفاء الحسنيين السجلماسيين من القوة الدينية- الروحية أي من "التبرك" إلى "التمركز والنفوذ" بامتلاك الأسس المادية اللازمة لأي تحرك لبروز قوة مستقبلية في الإقليم، هو الذي أفرز مواقف متباينة لأهالي تافيلالت

بين رغبتهم في إخراجه منها بعد تقويم أصوله أو محاولة الاعتداء عليه واغتياله، وبين موقف الفقهيين سيدي محمد بن إبراهيم وأبي إسحاق إبراهيم بن هلال السجلماسي اللذين انحازا إلى صف مولاي علي الشريف أبي المغازي.

لم يسفر هذا الخلاف عن نتيجة مؤدية لمولاي علي الشريف وإنما أسفر في النهاية عن تقوية حضوره في سجلماسة- تافيلالت وإحاطته بنوع من الإجلال والإكرام وتعزيز مكانته بالمنطقة، مما جعل ملوك فاس من المرينيين والوطاسيين يحترمونه ويفوضون له الأمر لتصريف شؤون المنطقة وترتيب العلاقة بين سجلماسة تافيلالت وفاس، وبينها وبين أهل السودان وكذلك بلاد الصحراء وشنقيط، مما أعطى لمولاي علي الشريف دعما وتفويضا في ترتيب "ركب الحج السجلماسي"، فكان له نفوذ في الجنوب الشرقي من المغرب وفي امتدادات أقاليمه إلى بلاد السودان الشيء الذي أحي وأنعش الحركة التجارية وحركة التداول والاتصال بين المغرب الأقصى وبلاد إفريقيا جنوب الصحراء.

4- الحياة اليومية وتأسيس المراكز العلمية

نبدأ في هذا السياق بمقولة المؤرخ أبي القاسم الزياني التي وصف فيها مولاي علي الشريف بالرجل الذي استبدل الملك بالعلم وخص به ذريته وعقبه في المغرب وفي ذلك يقول: "ممن عظم العلم، واكتفى به عن الملك"[49]. انتشرت مراكز العلم في تافيلالت في القصور التي توزعت في الواحة الفيلالية وحوض وادي زيز وغريس وما والاها متمسكة بتوجيهات مولاي علي الشريف وبمساعدته ودعمه المادي والعلمي والروحي- الديني، وبذلك نشأت في وسط ازدهرت فيه حركة المعرفة الدينية القرآنية، حيث اهتمت تلك المداشر والقصبات التي أقامها مولاي علي الشريف بتعليم القرآن وتحفيظه وبدراسة المؤلفات الفقهية التي كانت تدرس في فاس بالقروين وتجلب بتوجيه من مولاي علي الشريف إلى تافيلالت وقصورها على قاعدة أهل العصر الذين كانوا يشرحون مؤلفات العلماء السابقين في كراسي علمهم، وكان يسهل المامورية للطلبة لينتقلوا إلى فاس لزيادة المعرفة والعودة بها إلى تافيلالت، فكانوا يتوجهون إليها بالخصوص وإلى مراكش وكذلك إلى مراكز الزوايا خارج تافيلالت ليدرسوا ويستزيدوا من المعارف الدينية والفقهية بوجه خاص، فنشأ في هذا الجو وسط متحرك للمعرفة الدينية وصارت تافيلالت خلية تجمّع قراءة القرآن وتجويده والكتابة في الموضوع، وبذلك ألفوا في هذا الميدان على نسق السابقين، ولكن هذا "العصر الشريفي" تميز بحقيقة جديدة وهي توظيف وترتيب النفقات على طلبة العلم وحفاظ القرآن ودارسي العلوم الدينية بجميع فروعها وتشعباتها.

وهكذا أصبح عهد مولاي علي الشريف عهدا حيا استجاب له كبار شيوخ المنطقة الفيلالية، مما عزز الصلات بين علماء تافيلالت وعلماء فاس القرويين

ومراكش اليوسفية، فصارت مركزية تافيلالت مركزية لحفظ القرآن وجمع السنة وحفظ الأحاديث النبوية الشريفة، فاستقطبت كل من يهتم بهذا الميدان ويتهيأ للتوجه إلى جهات الأمان ونشر العلم والمعرفة، وهي المناطق الصحراوية المغربية وإفريقيا جنوب الصحراء، فكانت رحلة مولاي علي الشريف إلى بلاد السودان وإلى جهات المشرق، وكذلك إلى الجهاد بالأندلس والاتصال بمن تبقى من علمائها، كان كل ذلك مجالا حيويا لخلق جو جديد استفاد منه مولاي علي الشريف، فكانت حركته من أجل الإسلام عموما دفاعا ومعرفة وصلاحا.

هذه هي الأسس الأولى لشخصية مولاي علي الشريف في تافيلالت، فقد وصل إلى مستوى من النضج والإبداع ليكون رمزا لقيادة جديدة في المجتمع السجلماسي الفيلالي بالتعاون مع علماء المنطقة وخاصة الأسرة الإبراهيمية حفدة أبي إبراهيم العمري الهلالي.

أدى هذا الوضع إلى تمركز الحياة المعرفية إلى جانب النشاط التجاري مع إفريقيا جنوب الصحراء، فاتصلت المنطقة وتواصلت بما لا يتأتى تفصيله هنا، وإنما نقتصر على إجمال الصورة العامة للمنطقة. وقد بدأ مولاي علي الشريف حركته العلمية يوم كان مقيما بفاس حيث درس المبادئ الأولية للعربية بتلقينه للأجرومية وشرحها كما درس البلاغة العربية وخاصة علم البيان، وكان مُجيدا بحيث لفت نشاطه في هذا العلم نظر طلابه ونسبت إليه أصول المؤلفات المتخصصة في علم البيان والبلاغة، وخاصة مؤلفات الزمخشري والجرجاني وسواهما من علماء اللغة العربية، ولكن لم يصلنا ما أملاه على طلابه، بحيث غابت نصوص بحوثه في أدبار الزمان، وما غاب في الخزائن الخاصة بتافيلالت، وكانت زاويته مركزا لتلقين الطلاب مبادئ العربية وعلوم الدين، مما خلق من زاويته محطة للعلم والمعرفة الإنسانية في المناطق التي ركز فيها إقامته، وامتدت فيها المراكز ومحطات المعرفة فيها[50].

وقد أشاد بعلم مولاي علي الشريف كتب الأنساب والتراجم ووصفه الزكي العلوي في مطالع الزهراء بأنه: "دار علم وصلاح وعفاف وفلاح مشهورة بالعلم والولاية، وكان معروفا برياسة الدنيا، رأسا في العلم والدراية، ملحوظا بعين الرضا والإجلال والتعظيم عند الأمراء والكبراء، محبا للمساكين والفقراء"[51]. وقد تصدى كذلك لـ: لإطعام الطعام، وإقراء الضيوف، وقراءة القرآن، وتلقين الأوراد"[52] بفم خلوته قرب فم القصر بتغمرت[53]، حتى اشتهرت بلدته بالزاوية، وحبس على كل ذلك أحباسا وأوقافا كثيرة[54] في سبيل تلقين العلم للطلبة سواء من أبناء البلد أو الوافدين من مناطق مختلفة، فكثر بذلك طلاب العلم، وتنافسوا عليه[55]. وعند وفاته عام 847هـ/1443م[56]، صار ضريحه ملجأ لطلاب العلم "يقرأون الحزب ودلائل

الخيرات، وعلوم أخرى"[57]، والجدير بالإشارة أن قراءة دلائل الخيرات قد تكون بدأت متأخرة عن وفاة مولاي علي الشريف وتستمر إلى الآن.

5- الصلات والروابط بين تافيلالت- سجلماسة وفاس والأندلس

يحكم هذا الموضوع ما ساد من جو عام في عصر مولاي علي الشريف وهو النصف الأول بالخصوص من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهذا الجو السياسي كان واقعا مرا بالنسبة لأواخر الدولة المرينية وكان صعبا ومضطربا للمغرب كله، حيث ضعفت الدولة في فاس وعاشت أزمات قاسية في عهد عبد الحق المريني الذي كان آخر ملوك بني مرين وانفرط فيه عقد القبائل المغربية، فانحلت عرى الروابط التي كانت تتحكم في وثائق النظام القبلي، فامتازت المرحلة بقلق شديد، وصارت الأحلاف تعقد تارة، وتنحل أخرى وكان مجال ذلك هو المناطق الجبلية والسهوب والجهات التي كانت تتأثر بالعوامل الطبيعية من جدب وجفاف، فالأزمة القبلية تأثرت بالوضع الذي ساد مجتمع الرعاة والفلاحين بوجه خاص، وكان المؤشر الذي يدل على هذا هو ضعف الجباية وندرة مداخيل الدولة الشيء الذي خلق واقعا انقساميا بالمعنى الأنثربولوجي، وخلق نظاما للنفوذ القبلي متمايزا بين واقع الجهات الوسطى من المغرب وحقيقة المجال القبلي في الأطلس المتوسط الذي عرف تحركا قبليا انتقاليا، مما جعل الدولة تتأثر بهذا القلق الاجتماعي اقتصاديا وديموغرافيا، وأدى هذا إلى أن الدولة لم تعد تتحكم في أغلب مجال نفوذها سابقا، مما جعل جو الاضطراب والانعزال الاجتماعي والفوضى القبلية هي ميزة هذه المرحلة، سادت فيه التوترات القبلية والسيطرة الروحية لمشايخ التصوف وأصحاب المذاهب ذات البعد الديني الشيعي، مما خلق موجة جديدة من "الإمارات المستقلة" أوجدتها ظروف اجتماعية خلقتها الزوايا والتصوف في هذه المرحلة، فنشأت إمارات متمايزة خاضعة لشيخ الزاوية أو شيخ القبيلة، وهكذا أصبح التحكم في السياسة داخل المجتمع المغربي مرتبطا بحقيقة القبلية وحقيقة الاتجاه الصوفي والزاوية. فهناك توافق وتعارض في نفس الوقت، فهل استفاد مولاي علي الشريف من هذا الجو المشحون وغير المتجانس داخل المنطقة التي تحرك فيها بين سجلماسة- تافيلالت والعاصمة فاس باعتباره شريفا وشيخا روحيا دينيا؟

هذا السؤال يثير إشكالين رئيسيين في عصر مولاي علي الشريف الممتد من أواخر القرن الثامن للهجرة إلى منتصف القرن التاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، وهما أزمة الحكم وثورة الأدارسة بفاس[58]، وذلك يثير ثلاث قضايا أساسية:

أولا: أزمة الحكم والأسرة المرينية الأخيرة.

ثانيا: مسألة الأزمات السياسية الداخلية التي واكبت هذه المرحلة في المدن والبوادي.

ثالثا: مسألة الدفاع عن الإسلام في الأندلس والجهاد فيه من أجل نصرة الإسلام والدولة الإسلامية في غرناطة وما إليها من الجهات المستهدفة من قبل الغزو النصراني المسيحي في الأندلس، ويرتبط بهذه القضية مسألة نقل الحرب من شبه جزيرة إيبيريا إلى المغرب الأقصى خصوصا وأن طمع نصارى الأندلس من برتغال وإسبان كان موجها نحو المغرب والسيطرة على مضيق جبل طارق وغرب البحر الأبيض المتوسط عموما والتحكم في الملاحة البحرية في المحيط الأطلسي وشواطئ إفريقيا الغربية.

هذه القضايا كانت مشكلتها قوية وتثير في دولة الإسلام بالمغرب تحركا لتنظيم الجهاد، وقد سبق وأن عالجنا هذه النقط الثلاث في كثير من جوانبها، ولكن بقي علينا أن نثير حقيقة واقعية في أواخر عصر بني مرين، وهي حقيقة أزمة العرش والحكم، حيث ابتداءا من أبي عنان إلى نهاية عصر عبد الحق بن أبي سعيد المريني انتاب الدولة خلل في نظام الحكم، وهو ما جعل المؤرخين والكتاب الذين عاصروا هذه المرحلة يطلقون على واقع النظام والحكم بعصر التقلب والاضطراب وتولية الصبيان أو من بلغ مرحلة الاحتلام بالكاد، وفي ذلك كان لسان الدين بن الخطيب يؤلف كتابه "أعمال الأعلام" و"رقم الحلل"[59] وقد خصصهما لهذه الأزمة التي انتشرت في الدولة المرينية. إلا أن مولاي علي الشريف لم يربط علاقته مع هذا الواقع المتقلب، وإنما كان موقفه مسالما وغير معارض خصوصا لعبد الحق بن أبي سعيد، فقد بايعه والتزم ببيعته إلى أن عاجلته المنية في أواسط عصر عبد الحق سنة 847هـ/1443م.

رغم أن مولاي علي الشريف كان ذا شأن، فإنه لم يتحرك للدعوة إلى حكم المغرب، بحيث لم ينصب نفسه مسؤولا سياسيا في تافيلالت وسجلماسة، فقد اعترف بالقاضي الذي والاه السلطان المريني وكذلك اعترف بالعامل الذي ولاه بنو مرين على تافيلالت- سجلماسة. وهكذا كان غرضه هو بسط نفوذه الروحي وتأكيد خاصية الشرف التي امتاز بوصفه بها لما لها من تأثير في حياة المجتمع المغربي، فهو رصيده الذي كونه خلال حياته الطويلة. وقد لفت نظره ما كان يحدث شمال المغرب من هجومات نصرانية مسيحية، فاهتم بالدفاع عن الوطن المغرب، فإذن كان "وطنيا قبل أن يكون طالب سلطة". وهكذا ربى في المغاربة روح الدفاع عن الوطن والدين، فاشتهر بهذا الطابع والتوجه داخل الدولة المغربية.

إذن كان مولاي علي الشريف رجلا ذا أفق بعيد يعمل نصرة الحقيقة الكبرى وهي جمع شمل الدولة المغربية ومناصرة رجالها المخلصين الصادقين، واعتبر في كل ذلك شرعية ملوك الدولة المرينية رغم ما أصابها من خلل وضعف، وقد شهدت بذلك كتابات المؤرخين الذين عاصروه أو جاؤوا بعده، بحيث رغم ما حاول خصومه إثارته بينه وبين عبد الحق سلطان بني مرين الأخير، فقد حاولوا الإفساد بينه وبين

السلطان ولكنه ثبت على موقفه، وتبين لعبد الحق المريني صدق مولاي علي الشريف، ورد كيد أعدائه في نحورهم وهذا ما أشارت إليه كتب الأنساب ونخص بالذكر ما دونه كل من ابن دفين طيبة[60]، والفضيلي[61]، والمقري[62]، وعبد الكريم الريفي[63]، والزكي العلوي[64]، والناصري[65]، ورواية مطالع الزهراء هي المفصلة والمعتمدة لدينا وهي كما يلي: "وبقي رضي الله عنه يتردد بين جزيرة الأندلس وبلاد السودان وبذلك بقصد إعلاء كلمة الله، هذا دأبه هو وأهل سجلماسة وقبائل السوس الأقصى وصنهاجة الأحرار حتى تخوف منه سلطان وقته الإمام عبد الحق بن أبي سعيد المريني، وكان هذا السلطان يحبه محبة قبل دخول الوشاة من أهل فاس بينه وبينه، فلما تمكن كلام الوشاة من قلب السلطان المذكور أمر مولانا علي الشريف بالسكنى بفاس، فامتثل أمره وسكن بها بحومة رأس الجنان، بجزاء ابن عامر وداره معروفة هناك، نحو اثني عشرة سنة، فطلب رضي الله عنه من السلطان الرجوع لبلاده سجلماسة، فأذن له في الرجوع إليها على أن يرجع لفاس، فلما خرج من فاس بنية السفر لسجلماسة دخل بعض الوشاة من أهل فاس على السلطان، وقال له إن الرجل الذي طلب منك السفر لبلاده وأمرته بذلك ليس الأمر كما ظننت أو كما قال، وإنما نيته الخروج عليك وعن طاعتك، فتراه أبدل السكة، وقد تكلم مع فلان وفلان من أهل فاس ومع قبائل العرب والبربر، وكان لهذا السلطان رجل صالح يجالسه ولا يفارقه في غالب أوقاته ويشاوره في جميع أموره، وكان هذا الرجل الصالح ينهاه عن مجالسة أهل فاس، سيما العوام منهم، فجاءه يوما فوجد البعض من أهل فاس عنده، وهو اليوم الذي سافر فيه مولاي علي الشريف لبلاده، فغضب الرجل الصالح وهجر السلطان أياما متواليات، فأرسل وراءه السلطان، فأبى أن يدخل عليه، فبقي السلطان يستعطفه إلى أن أجابه بالدخول عليه، فلما دخل الرجل الصالح على السلطان فرح به وسر بدخوله عليه وقام إليه إجلالا، فقال له الرجل الصالح: لا أكلمك يا أمير المؤمنين حتى تصدقني بما حدثك به فلان، فأخبره السلطان بما قال له، فقال له الرجل الصالح: إن أهل فاس لا يامرونك إلا بالسوء لأنهم أهل غش وخديعة ولا يحدثونك إلا بالكذب، فصدقه السلطان، وقال له: ياسيدي أخبروني أن مولاي علي الشريف أبدل السكة وأراد الخروج عن طاعتي، فلو أرسلت بعده وأثقلته بالحديد وخلوته في الهجر لكان أولى لك قبل أن يزاحمك في ملكك وملك أبيك وجدك، وها أنا بعثت وراءه نحو الخمسين فارسا، والآن تبت الله ولا أعود أسمع كلام أحد فيه إلا بخير، فقال له الرجل الصالح: قد علمت ذلك، فلما لحقوه، لحقوا الخمسين فارسا، بمولانا في أثناء الطريق وأخبروه بأمر السلطان، فأجابهم بالسمع والطاعة لأمير المؤمنين، رجع مولانا علي الشريف معهم إلى أن وصل إلى حضرة السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني، فوجده قد ندم على ما فعل، وقام السلطان إجلالا لمولاي علي الشريف وقبله وعظمه،

وقال: يا سيدي وابن سيدي اسمح لنا، فأنتم أهل الجود والوفى لأنك من سلالة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فأجابه مولانا علي الشريف بقوله: والله الذي لا إله إلا هو لا أرضى بمملكتك لوصيفي هذا خنوس، والوصيف في ذلك الوقت حاضرا معه في بساط الملك، فلما استقر المجلس بين السلطان وبين مولانا علي الشريف دخل عليهما الرجل الصالح فطال بينهم الكلام، فمن جملة ما قاله الرجل الصالح: يا أمير المؤمنين ألم أقل لك إن أهل فاس أهل غش وخديعة للملوك، وأن هذا الشريف عليه نور النبوة، والخلافة لاشك في عقبه من بعده، كأني أنظر إليهم في مؤنتك هذه وهو لا يلحقك منه ضرر لا الملوك من أبنائك ولا الدولة التي من بعد دولتكم، وملك المغرب في عقبه يطول، وهذا الرجل الصالح على الواو (كذا) حتى غشي عليه، فلما أفاق من حاله، قال للسلطان: الأمر لله الملك لله، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، فبكى السلطان بكاءا شديدا وطلب منهما العفو، ثم أمر السلطان مولانا علي الشريف بالرجوع إلى جزيرة الأندلس برسم الجهاد، فامتثل رضي الله عنه الأمر...".[66]

6- مولاي علي الشريف وسلاطين بني مرين المتأخرين

عاصر مولاي علي الشريف الملوك الأواخر من الدولة المرينية وحاول أن يكون متعايشا مع أسرة الحكم مما يثبت أن هذا الشريف لم يعمل على انتزاع الحكم ولا تدبير قيام دولة شريفة رغم أن نزعة الشرف في الدولة المرينية لقيت دعما وتقديرا واحتراما، ورغم أن الظروف التي كانت تحيط بالدولة المرينية تهيئ المجال لهذا النوع من الزعامات الجديدة التي كانت تنتشر بحكم الولاء الصوفي ودعم العناصر التي لها ارتباط بآل البيت والإعداد لقيام إمارات مستقلة دفعتها إلى ظهور عوامل جديدة وهي الجهاد في الأندلس ومناطق المغرب الشمالية التي كانت تحت تهديد النصارى بحكم السيطرة المسيحية على مضيق جبل طارق، فكانت سبتة وطنجة مطعما لكل من البرتغاليين والإسبان، ولذلك نجد مولاي علي الشريف اتخذ من هذه العناصر مناطا لقوته وكيان جماعته الذين كانوا تحت أنظاره في كل من سجلماسة- تافيلالت وفي فاس كذلك وشمال المغرب، واستفاد عمليا من الاحترام المريني للأشراف، وقد سبق أن اتخذ من حركة التطوع للجهاد في الأندلس خلال أوائل حكم عبد الحق المريني، وإن كان عامل سبتة وسقوطها في يد البرتغاليين قبل ذلك، محركا للمغاربة جميعا، وأدى ذلك إلى تنظيم حركة الدفاع والجهاد، فقام مولاي علي الشريف بجهد كبير لجمع المتطوعين، فكان شيخا للغزاة المجاهدين في الشواطئ المغربية والأندلسية التي استشرى فيها نفوذ الإسبانيين الذين نظموا حملاتهم ضد المغرب وشواطئه. لكن الفترة التي ظهر فيها هذا الوضع قائما أعطت طابعا جديدا لموقف السلطان المريني من جميع الزعماء الذين كانوا يترأسون حرب الجهاد وحرب تحرير

الجهات المحتلة من النصارى وأتباعهم، وكان الجو العام الذي يسود المغرب هو انفراط الأمن وفوضى القبائل، فصارت المدن في الداخل تحت رحمة الفتن والاضطرابات، ولم يعد السلطان متحكما ولا مسيطرا على خارج المدن، وبالخصوص العاصمة فاس.

إن الدولة المرينية لم يبق لها جيش منظم يحميها، فتسرب الشك إلى قادة التسيير في المجتمع، بحيث أصبح كل من له نفوذ واعتبار في الوسط المجتمعي عنصرا مشبوها، ولم يستطع السلطان المريني أن يبرم أمرا يحل المشاكل الداخلية، وهذه هي وضعية مجتمع الدولة في عصر عبد الحق المريني، وخاصة بعد سقوط سبتة سنة 818هـ/1415م.

وعندما عاد مولاي علي الشريف من إحدى حملاته في الأندلس تشكك رجال السلطان في أمره وبدأت الوشاية بالشريف ليحذر السلطان من خطورته والقيام عليه وانتزاع البيعة. وهذا زعم لم يجد قبولا في البلاط المريني، كما تبين في الفقرات السابقة، حيث كان يتضمن رجالا صالحين ومستشارين يحاولون أن يعطوا لموقف مولاي علي الشريف "حقيقته السياسية".

ومع ذلك نجح الوشاة في خلق نوع من القلق في نفس السلطان عبد الحق المريني الذي استدعى مولاي علي الشريف ليستبين الأمر ويعرف حقيقة الأمور، وهذا الواقع أعطته كتب الأنساب صورة لتبرئة مولاي علي الشريف وتكليفه بشؤون الوسط القلق في المجتمع وتصفية ما كان يحيط بالسلطان من مؤامرات في نفس الوقت، وتكاد كتب الأنساب تنفرد بتحديد قضيتين في الموضوع:

أولها: تدخل الرجال الخلص والأصفياء الذين كانوا يعملون وسطاء بين مولاي علي الشريف وبين السلطان والذين لهم تحرك ضد سلطة بني مرين. وهذا ما ذكره المؤرخون باسم الرجال الصاحين.

الثاني: هو الوسط الفاسي[67] وموقف أهل المدينة من كل العناصر الذين يتقربون إلى السلطان، فقد صورت هذه النصوص[68] أهل فاس تصويرا يبين خداعهم للسلطان وتقلب مواقفهم منه وحتى من كل متزعم يرونه قريبا من السلطان المريني أو يتقرب منه بأي صورة من الصور. فكانت هذه الصورة التي لها طابع أخلاقي ووشاية تمردية تعمل على التشكيك في نية مولاي علي الشريف.

هذا الواقع حاول فيه مولاي علي الشريف أن يكون أمينا ومخلصا للسلطان المريني، ولكن الإصرار الذي عومل به جعل المستشارين يلحون على تصفية الخواطر والجو لتبرئة مولاي علي الشريف، فكانت الوقت التي قضاها بفاس إلى جانب السلطان كافية لكي تبرئ ذمته وهي اثنا عشر سنة عاشها بداره بجزاء ابن عامر بفاس[69] وكأنها إقامة إجبارية فرضت عليه، حيث حاول بعد ذلك الانتقال من

فاس إلى سجلماسة- تافيلالت، فاستوثق منه عبد الحق المريني وأذن له بالخروج من فاس إلى مهد أسرته بتافيلالت.

ومع ذلك لم يترك مولاي علي الشريف وشأنه الذي كان بريئا من تبني أي موقف سياسي ضد عبد الحق المريني، فانتقل إلى صفرو وأقام بها مدة قصيرة، واتخذ من زاوية بها مكانا ليحتضن به أسرته، ويظهر أنه اتصل بالقبائل المحيطة بصفرو وخاصة قبائل "آي يوسي" وما جاورهم مثل مديونة وفندلاوة وآيت سغروش الذين كان انتشارهم قويا على امتداد الطريق الرابط بين فاس وسجلماسة، فكان انتشارهم يمتد إلى المضايق التي تصل بين صفرو والنجيل وواد كَيكَو، فهم الذين تعهدوه ورعوه في حِلة وترحاله، ولعل مولاي علي الشريف عقد اتفاقا بينه وبين آي تيوسي في الأطلس المتوسط الشيء الذي جعل حركته آمنة ووجدوه قائما في هذه الجهات، وكان أهل فاس يعلمون هذا النفوذ القبلي عند مولاي علي الشريف، فقاموا بوشاية إلى السلطان يتهمونه فيها بالتحرك ضده، ومع ذلك لم ينالوا منه شيئا، مما أدى بالسلطان لاستدعائه إلى فاس من جديد، فشرح للسلطان ما كان من أمره وأخذ عليه العهود والمواثيق، وهكذا خلال إقامته في صفرو اطمأن عبد الحق إلى مولاي علي الشريف ولم يقم ضده بعمل يؤذيه، مما جعل الأمور تسير لصالح مولاي علي الشريف وتدفعه إلى أن ينتقل من صفرو عبر طريق التمر المعروفة إلى موطنه الأصلي تافيلالت، وأخذ يستقر في الأماكن الحساسة في الطريق مثل جرسلوين قرب وادي زيز، فأقام بها مدة يتصل بمن كان يتعهد الطريق من رجال القوافل التي كانت تعبرها، فكون في هذه المحطات مقرات للإقامة والاستراحة (النزالات) وضمن سلامة الطريق لقوافل التجارة بين فاس وسجلماسة، وهي آخر محطة مولاي علي الشريف، حيث استقر نهائيا في تغمرت أحد قصور سجلماسة والتي كانت مركزا لزاويته وإقامته التي وافاه الأجل المحتوم فيها سنة 847هـ/1443م، ولم يُبد أي رغبة في القيام بأي تحرك ضد السلطان المريني، حيث هيأ الجو العام لإقامة الأسرة "العلوية الفيلالية- السجلماسية" التي صارت فعلا أسرة ذات نفوذ في المنطقة وفي الطريق الواصل إلى فاس.

وهكذا كان مولاي علي الشريف مؤسسا لهذه الأسرة ولمجتمع القبائل المغربية والأحلاف الكبرى وخاصة "حلف آيت يافلمان" المحيطة بطريق التجارة وركب الحجيج[70].

اختل التوازن في هذا العصر لصالح دول شمال البحر المتوسط، وتولى الانحطاط والضعف ببلاد المغرب الكبير وأصبح يغذي نفسه بنفسه ويخلق ظروف استدامته واستشرائه: تحكم البدو في الجيش ثم في الدولة فتكون نظام قبائل الجيش من العرب والبربر في مجتمع دولة المغرب الأقصى بالخصوص، وتناقصت الجبايات، وانكمش الإنتاج، وضمرت الصنائع، واشتد التنافس على السلطة، وتعطلت

المواصلات، وخربت الأمصار، وضعفت الثقافة. ..فساد الانحطاط الحضاري للمجتمع المغربي[71]، وانحلت الدولة وتفتت المجتمع، فاستقلت كل فئة اجتماعية عن الأخرى، وفقدت بالتالي غطاءها الشرعي. وفي مثل هذه الحالة من تفكك المجتمع، حيث تبدو مكوناته عارية منكشفة منفصلة[72].

ولم تستطع الدولة المرينية توقيف عملية التمزق فيها، بل استفحلت هذه العملية أثناء العقود الأخيرة من القرن الثامن للهجرة وبداية التاسع/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، بسبب تأثير عاملين اثنين:

الأول: الدور القيادي الذي أصبح يقوم به الوزراء العائد إلى قوة عصبيتهم القبلية وإلى الإقطاعات التي تراكمت لديهم عبر السنين.

الثاني: هو استمرار المكائد والمناورات التي كان يحيكها الأمراء الزيانيون البنوعبد الواديون التلمسنيون وبنو الأحمر النصريون والإسبان ضد المغرب[73].

وبسبب ضعف المتولين من السلاطين الذين لم تكن لهم خبرة في القيادة والسلطنة بالإضافة إلى ما كان يحيط بالمجتمع من عناصر الاقتصاد المبني على المعاش، فكل ذلك جعل سلطة الدولة تنحصر في أهم المدن وخاصة مدينة فاس ومراكش، بحيث كانت المدن البعيدة عن المركز فاس غير قادرة على تمثيل الدولة وبسط كلمتها ونفوذها حتى في الجهات القريبة، فأصبح الفساد منتشرا وضعف التسيير قائما، ويصور لنا هذا الوضع المؤرخون الذين عاصروا مرحلة عبد الحق المريني، فكانوا يتكلمون على المرحلة التي جائت بعد أبي عنان المريني (نهاية القرن الثامن إلى أواسط القرن التاسع للهجرة) بطريقة لا تخفي ما كان يسود في الدولة من فساد وخروج عن سياق سلطة الحاكم المتمسك بشؤون الدولة.

هذا الوضع جعل مشايخ القبائل يتحولون إلى شبه أمراء أقوياء في مجال انتشار قبائلهم وخاصة في الأماكن المعزولة. فكانت القبائل الكبرى في الأطلس الكبير والأطلس المتوسط تغير أحيانا على تلك المدن وتجعل منها جهات فيما يعرف في المجتمع المغربي الوسيط بالجهات التي لا تنالها أحكام السلطان، وظهر وسط اجتماعي يعرف ب "مجتمع السيبة" ولم يبق تحت سلطة المريني سوى المدينة المركز فاس، وأصبح التواصل مع رعايا السلطان صورة شكلية لا يتحقق فيها نفوذ الدولة بمعنى الكلمة.

وقد تحرك مولاي علي الشريف في النصف الأول من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد تحركا أعطاه في مجال "طريق التمر" سجلماسة- فاس مكانة قوية ونفوذا يربطه ويقويه في "القبائل النافذة" في مجال الربط بين فاس وسجلماسة بحيث صار ذا سمعة وأمر مقبول لدى القبائل يستخدم في كل ذلك نفوذه الذي اكتسبه

بالأحلاف والاتفاقيات التي عقدها مع حلف آيت يافلمان وما كان في ركابه من قبائل تتحرك في مجال المغرب الشرقي والجهات الجبلية المحيطة بذلك.

"صار مولاي علي الشريف شيخ التجمع القبلي العربي- الأمازيغي" في كل من حوض ملوية وامتداداته الجغرافية والبشرية داخل التخوم الشرقية في المغرب الشرقي. وهكذا تمكن من ربط الاتصال والتواصل بين القبائل العربية المعقلية وحتى من كان معها من قبائل هلالية والقبائل الأمازيغية ذات الأصل الزناتي خصوصا ومن تحالف معهم من قبائل صنهاجة. وأمسى مولاي علي الشريف يتهيأ لربط الصلة بين سجلماسة وأقاليم توات والطريق الرابطة بين هذه الجهات والصحراء الإفريقية الكبرى. يعني هذا أن مولاي علي الشريف أصبح قوة روحية وبشرية في "مجال قبائل المغرب الصحراوي".

هذا الوضع أكسب المغرب تمكنا في التواصل بين تخوم الصحراء الكبرى ومركز الدولة مدينة فاس وكذلك مدينة تلمسان وما والاها، فصارت المنطقة الشرقية من حوض ملوية مجالا حيويا لإنعاش السلطة أو تدميرها، فكل من سيطر في هذا المجال من أي تجمع قبلي كان ذا نفوذ وسلطة معترف به، ومن تخلى عن ربط التواصل وتمكينه لم يعد له شأن يذكر، فالقوي أصبحت له التبعية والضعيف لم يعد شيئا مذكورا. وهذا هو الوضع الذي تحقق في آخر الدولة المرينية وخاصة في عهد السلطان عبد الحق المريني.

- **خاتمة**

الذي يظهر من خلال المصادر أن مولاي علي الشريف أصبح متمكنا وله قوة مهابة ولا يمكن توقيفه بأي صورة من الصور، وكان الاختبار بزيادة التمكين وبسط نفوذه في مدينة سجلماسة ومجالها. ولذلك اختار أن يعيش أواخر عمره في المدينة التاريخية وما يحيط بها من مجال يحقق له الظهور والتميز في المكان الذي سيعيد له اعتباره ويحيي مجد المدينة وإن تغير الوضع عما كان عليه قبل، فاختص مولاي علي الشريف في الفترة الأخيرة من حياته أي بعد سنة 842هـ/1438م بالإقامة في القصور بقصر زاوية تغمرت بضاحية مدينة سجلماسة القديمة تحديدا.

وقد أجمل الأستاذ عبد الله العروي الصورة العامة لهذه الوضعية المضطربة في كتابه "مجمل تاريخ المغرب"[75]. ولعل ما يميز ذلك العهد هو تدهور الوضع العام في بلاد المغرب الكبير وتصاعد الهجمة الإيبيرية، سواهما حدثان مرتبطان بالطبع. مر كل منهما بمرحلتين اثنين: شهدت الأولى تفسخ دولة بني مرين وتصدر البرتغاليين حركة التوسع الإيبيري. أما الثانية فإنها عرفت انحطاط سائر البلاد وبسط سلطان الإسبان على المنطقة كلها.

الهوامش:

39-هذا النظام العمراني أغنى الباحث لحسن تاوشيخت في التعريف به بدراسته عن سجلماسة وعمرانها. انظر لحسن تاوشيخت، عمران سجلماسة- دراسة تاريخية وأثرية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1429هـ/2008م. في جزأين.

40-تسير المصادر الجغرافية القديمة إلى أن ميناء عجرود على البحر المتوسط كان يعتبر ميناءا لسجلماسة تافيلالت في هذه المرحلة، حيث كانت تصله القوافل من جهات المغرب الشرقي كله، من فكيك وواد الساورة وتوات وسجلماسة. راجع في هذا الصدد ابن فضل الله العمري في المسالك والممالك وكذلك ماضبطه العلامة المنوني في دراسة اقتصاد سجلماسة بالاعتماد على نصوص ابن فضل الله العمري، ويؤيد ذلك ماذكره الوزان وتبعه غيره من الجغرافيين المقلدين أمثال مارمول.

41- Spillmann Georges, Les Ait Atta du Sahara et la pacification du Haut Dra, Publications de l'institut des Hautes études Marocaines, XXIX, Rabat
أوغست كور، دولة بني وطاس، ص.32

42- المقصود بهم الاسلاميون الذين كانوا على دين اليهودية فأسلموا.

43-وهي مؤامرة لاغتيال مولاي علي الشريف بعد أن حاولوا استرجاع ما كان بيده من أملاك وثروات على أساس أنه سطا عليهم بدون حق، وهو مفتعل وشيء ضد مولاي علي الشريف.

44-في تاريخ قضاة سجلماسة لا نعلم له ترجمة فهو شخصية مغمروة قد يكشف البحث عن ترجمته ودوره في التاريخ الفقهي والقضائي لتافيلالت، ولعله من أفراد بيوتات الفقه والعلم الديني الشرعي في الجهات الفيلالية المشهورة بمراكز العلم مثل جهة الغرفة والماطي وإيرارة والسفالات وسواها من القصور والمقاطعات الفيلالية التي أنجبت كثيرا من حفظة القرآن وعلماء الشرع ورجال التصوف كما هو معروف في أولاد ابن عبد الحليم وأولاد الزهرا وكانت لهذه الجهات علاقة طيبة ملحوظة مع مولاي علي الشريف وأبنائه، وقد يسروا له نوعا من الانتشار والذيوع لكسب ولاء سكان الجهة الفيلالية، وهذا الجانب لم يعالج في المصادر ولكنه كان معروفا في الوسط العام معرفة ذائعة ومنتشرة.

45-مصطلح الاسلامي في تافيلالت وفي الجهات الصحراوية سواء في درعة أو في وادي زيز أو في أقاليم توات والساورة والصحراء الجنوبية يوجد استعمال مصطلح الاسلامي ويعني العناصر الجديدة التي تدخل في الدين الاسلامي وقد كانت على دين آخر وخاصة اليهود، وقد كونوا جماعة لها حضورها في الحياة الاجتماعية بهذه المناطق وربما امتد المصطلح ليطلق على كل من أسلم من السهود في المغرب عموما، وعرف هذا المصطلح أيضا في مدينة فاس، بحيث أطلق اسمهم على حي في مدينة فاس "البلديون" وهو وصف لهم ومن انتشر في هذا الحي، ثم سموا بأهل البليدة وهذا شيئ معروف في تاريخ فاس وألف فيه مؤرخو المدينة، ومنهم مجموعة من الأسر التي تنتسب إليهم، وقد حسن إسلامهم وقجموا خدمات جليلة من بينهم الفقيه ميارة شارح المرشد المعين لابن عاشر الذي كان يدرس للعامة وللمبتدئين بالقرويين.

46-ابن دفين طيبة الجوهر الشفاف، ص.23

47-يوجد رسم هذه الملكية عند من تعاقب على شرائها ومنهم أسرة آل التازي سعود.

48-انظر أحمد بن عبد العزيز العلووي الأنوار الحسنية. الزكي العلوي، الشجرة الزكية، ص309.حمدون السلمي الفاسي، الدر المنتخب، ج5، ص.93

49-أبو القاسم الزياني، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، تحقيق رشيد الزاوية، مراجعة الأستاذ مولاي هاشم العلوي القاسمي، طبعة وزارة الثقافة، الرباط، ص21 من النص المحقق.

50-مستندا هنا ما ذكره الشيخ اليوسي في رسائله، انظر فاطمة القبلي، رسائل اليوسي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981، ج1، ص.145

51-الزكي العلوي، مطالع الزهراء، ص.44

52-الفضيلي، الدرر البهية، ج1، ص119. كانت أوراد مولاي علي الشريف ذات بعد سني لا تلتزم طريقة صوفية معينة، وكان يعتمد الصلاة المشيشية الشاذلية. وبذلك يكون تصوفه شاذليا سنيا مبينا على ما وافقه عليه علماء القرويين في فاس، وخاصة ما زكاه ابن عباد الرندي الذي بسطه في رسائله الصغرى والكبرى، فإن هذا الاتجاه هو أساس المعرفة الروحية عند مولاي الشريف وأتباعه.

53-ابن دفين طيبة، الدرة المكنونة، ص.211

54-الزكي العلوي، مطالع الزهراء، ص.144

55-سعيد واحيحي، سجلماسة تافيلالت، ص.245

56-الفضيلي، الدرر البهية، ج1، ص.139
57-عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج1، ص.174
58-راجع محمد القبلي، مراجعات.
59-راجع: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964. وقد خصصه ابن الخطيب لملوك المبايعين قبل الاحتلام في المغرب ولم يكمله، وقد توقف فيه عند نهاية الموحدين وتوقف في تاريخ ملوك بني مرين الذين لم يبلغوا الاحتلام بحيث بايعوهم قبل الرشد وواجهوا مشكلة الاعتراف بهم وهم أطفال صغار، وهذه مشكلة الدولة المرينية بعد أبي عنان إلى عبد الحق بن أبي سعيد ابن الخطيب، رقم الحلل، المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ. وهي أرجوزة صنفها المؤلف في تاريخ خلفاء المشرق والمغرب والأندلس، وتقدم بها إلى السلطان المريني اعترافا بفضله عليه، وقد اتبع فيها منهجا يقوم على إيراد الأبيات الشعرية المتعلقة بفترة زمنية معينة ثم يتبعها بشرح موجز لتلك الأبيات، وخلالها يورد معلومات هامة وموجزة عنها.
60-ابن دفين طيبو الجوهر الشفاف، ص.23
61-الفضيلي، الدرر البهية، ج، ص.
62-كنز الأسرار.
63-زهر الأكم.
64-مطالع الزهراء.
65-الاستقصا.
66-الزكي العلوي، مطالع الزهراء، صص208-.210
67-اهتمت كتب الأنساب بالوسط الفاسي الذي كان يتصرف تصرفا مخادعا وحاول مولاي علي الشريف أن يتجاوزه وأن لا يثق بكل نميمة تصله باعتباره شخصا خطيرا في المجتمع الفاسي على السلطة المرينية وقد ذهب الوشاة الفاسيون كل مذهب لإفساد العلاقة الودية بين السلطان المريني ومولاي علي الشريف، وهذا الوسط الفاسي اعتبرته كتب الأنساب من أوصافه الدائمة وهي الخداع والنميمة وإفساد ذات البين وهي طبيعة تعتبر صفة مستمرة في المجتمعات ذات التواصل المتناقض.
68-الزكي العلوي، مطالع الزهراء، صص 208-.210
69-أزمة السلطان بسكنى فاس بدار توجد بجزاء ابن عامر مدة اثنا عشرة سنة، فكانت كافية لتصفية الجو وكسب ثقة السلطان فيه.
70- D.Jacques-Meunié, le maroc saharien des origines à 1670, Klincksieck, paris, 1982, 2 vol. Larbi Mezzine, Le Tafilalt, Contribution à l'histoire du Maroc aux XVII^{é} et XVIII^{é} siécles, Publication de la FLSH, Rabat, 1987.
71-وقد حلل هذا الوضع ابن خلدون في مقدمة كتابه العبر وفصل وقائعه في أجزاء الكتاب وخاصة الرابع والخامس والسادس والسابع، وكان عمله الهام "التعريف" و"السلسل العذب" صورة تحليلية للوضع السائد في المجتمع الذي عم فيه الضعف من كل الجوانب وانتشر فيه التمزق الروحي والتشظي الديني على مستوى الزوايا والطرق الصوفية.
72-عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص .397
73-نفسه، صص426-.427
74-Terrasse H., Histoire du Marov, T2.
75-راجع عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط2، 2009 صص426،428.